(ديسمبر) ١٩٢٠، وأصبح الاستقلال الوطني يعني «تأليف حكومة وطنية مسؤولة أمام مجلس نيابي ينتخب أعضاءه الشعب المتكلم باللغة العربية، القاطن في فلسطين حتى أول الحرب العالمية الاولى». ومثّل هذا التغيير، «اعترافاً بواقع التجزئة المفروضة على المشرق العربي» (ص ٢٨).

أمّا بالنسبة الى الموقف من الاحتلال البريطاني، فتطرّق الكتاب الى البدايات، مؤكداً ان السياسيين والمفكرين العرب نظروا الى القوات البريطانية نظرة الحليف، بينما نظروا الى العثمانيين نظرة «القوات المهزومة». وأبدى فريق من المسلمين أسفهم على زوال الحكم العثماني، الاّ ان الفكرة السائدة كانت الترحيب بالقوات البريطانية، من جهة، وشعور معظم الفلسطينيين بأن الاحتلال العسكري البريطاني ما هو الاّ أمر مؤقت اقتضته الضرورات، «ولا بدّ ان تتلوه تسوية سياسية تحدّد مصير البلاد ومستقبلها» (ص ٣٤).

إلاّ ان هذه الفكرة سرعان ما أخذت في الانحسار، على أثر الاعلان عن نظام الانتداب؛ اذ اعتبرته الاكثرية مناقضاً لميثاق عصبة الأمم والمواثيق الدولية، الامر الذي أسهم في تطوير الفكر السياسي الفلسطيني والانتقال الى مواقع المعارضة، ومن ثمّ الاختلاف، فالصراع مع الانتداب البريطاني.

تعرّض الفصل الثاني الى النضال السياسي منذ بدايات العمل الدبلوماسي الفلسطيني، وشعور القيادات السياسية العربية في فلسطين بخطورة التآمر البريطاني ـ الصهيوني على فلسطين، وكذلك من خلال ما تركته ممارسات الاحتلال البريطاني من آثار سلبية في الجانب الفلسطيني. وتبلور النضال السياسي الفلسطيني، فاتخذ اشكالاً مميزة مع اقتراب انعقاد مؤتمر سان ريمو، في نيسان (ابريل) ١٩٢٠؛ اذ حاولت «اللجنة التنفيذية العربية» ارسال وفد لايضاح وجهة نظرها للدول الحليفة؛ الاّ ان السلطات البريطانية رفضت هذه المحاولة، وتأجل اللقاء حتى مجيء وزير المستعمرات البريطاني، ونستون تشرتشل، الى فلسطين، حيث التقته القيادة الفلسطينية في أواخر آذار (مارس) ١٩٢١، وسمعت منه «ان حق بريطانيا في فلسطين مبنيّ على حق الفتح العسكري».

صُدمت القيادة الفلسطينية من التعارض التامّ بين وجهة نظرها ونظرة تشرتشل. وتعرّض هذا الفصل، أيضاً، الى نشاط اللجنة التنفيذية، برئاسة موسى كاظم الحسيني، وارسالها الوفود الى لندن خلال فترة ١٩٢١ ـ ١٩٣١، وعدم جدوى تلك الوفود، من جهة، وما أثارته من غضب في أوساط الشباب الفلسطيني وقواه الناهضة، من جهة أخرى، الأمر الذي أدّى، بدوره، الى خلاف حول أولويات العمل الوطني، وتحديد العدو الاول الواجب مقاومته، أهو الحركة الصهيونية أو الانتداب البريطاني؟ «وانقسم هؤلاء الى فريقين: فريق تقليدي يعتبر الصهيونية العدو الأول، وينادي بالعمل على كسب الانكليز الى جانب العرب، لمقاومة المخططات الصهيونية؛ وفريق من الشباب يعتبر الانتداب العدو الاول الواجب مقاومته، لأنه حامي الحركة الصهيونية ومنفّذ خططها. ويمثّل الفريق الاول اللجنة التنفيذية العربية» (ص ٢٩)؛ أمّا الفريق الآخر، فمثّله فريق الشباب «الذي يعتبر الانتداب هو العدو الأول والخطر الأكبر الواجب مقاومته» (ص ٦٠).

وتطرّق هذا الفصل الى سياسة اللاتعاون، ثمّ فشلها والعودة الى مبدأ التفاوض، أملاً في تحصيل شيء. وبعدما تيقّنت اللجنة التنفيذية من عدم جدوى التفاوض، بدأت بالدعوة الى العصيان المدني، الأمر الذي تطوّر وصولاً الى اندلاع ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩. وتناول الفصل، بشيء من التفصيل، العمل السياسي في اثناء تلك الثورة، وصولاً الى القبول بـ «مؤتمر لندن» و«الكتاب الأبيض» لسنة ١٩٣٩، انتقالاً الى النضال السياسي في أثناء الحرب العالمية الثانية واتصال الحاج أمين الحسيني بدولتي المحور، ألمانيا وايطاليا؛ ومن ثمّ التعرّض الى النضال السياسي بعد الحرب العالمية الثانية، وتشكيل «اللجنة العربية العليا» سنة ١٩٣٦، ومحاولات عرض القضية الفلسطينية على الامم المتحدة، ورفض قرار التقسيم، والدعوة الى تأليف اللجان القومية في المدن لتنظيم شؤون الدفاع المحلي.

الفصل الثالث تمّ تخصيصه للمسائل المتعلّقة بالكفاح المسلّح، منذ بداية الصدامات الاولى، وانتقالاً الى هبّة البراق سنة ١٩٢٩، فمظاهرات سنة ١٩٣٣ وبروز حركة القسّام، فاندلاع ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩،